

www.assafir.com

تاريخ المقال: 25-05-2012 12:00 AM

الشيخ موسى شرارة والسيد محسن الأمين أستاذ إصلاحي وطالب تجديدي

ابراهيم بيضون ثمة ما رسب في وعيي الطفولي، مَعْلمٌ كنا نتوقف بمحاذاته لتلاوة "الفاتحة"، ولم يفتنا ذلك في ذهاب وإياب.. ولقد تمثل لي حينئذ الثاوي في المكان، متزملاً بعباءة بيضاء فضفاضة، فارع الطول، جليلاً، ذا مهابة، تقوياً حتى القداسة، ذائباً في ذات الله حتى العشق. هنا يرقد إذاً الشيخ موسى شرارة، الذي تعرفته بالفطرة، واكتنهت بعد حين تفاصيل أكثر عنه، فقيهاً، شاعراً ومؤسس مدرسة من طلابها علماء كبار، وبعضهم دمغ المرحلة بحبره، وتعملق في فضائها، ثائراً على الجمود، وآخرون سطع نوره في عقولهم، فما بدلوا أو ضلوا الطريق. وعلى مرّ العقود، بقي الشيخ الأنموذج والرمز، في وقت كان العلماء في المحل الأعلى، ولكنهم مع الناس على الأرض، فقراء مثلهم، وهؤلاء يلتفون حولهم، ويعشون إلى ضوئهم، مرجعية في الدين والدنيا، وليس منهم أولئك الذين شغلتهم الأخيرة، كلامهم غير مسموع، وصوتهم لا يدخل شغاف الوجدان، ومنهم من يحرس المال ولا يحرسه العلم، خلافاً لمقولة الإمام في "نهجه" البليغ.

من أين تأتّت للشيخ تلك الحوافز التي قادته إلى الموقع المميز في عالمه الرسالي؟ ليس مفر في الجواب على ذلك من العودة بعيداً في الزمن، واغلين في تاريخ الجبل العاملي، و"الشيخ" من سلالة نخبه التي خطت النهر فانسكب في مواجدها صفاء، وأعطت للأرض وجه أنها أرض الدم والشعر والعنفوان، فلم تستكن لظلم أو تهاون في موقف، أو تنصع لغير مجد الكلمة في حال من الأحوال.

بيد أن الطريق ليست جلية، ونحن نحاول الانسياح في الزمن، فثمة أوراق مبعثرة لا تشي بالكثير من تفاصيل المراحل الغابرة، إذ هي مجرد معطيات مختزلة، تتصادى في التراث المبتور، بعدما استهدفه طغاة الجهل، الذين طالما غارت رماحهم في تراب "الجبل"، فقتلوا ودمروا، وأشعلوا النار في المكتبات، وإن عصت عليهم الأوراق المخفية في الدهاليز، أو المحفوظة في صدور العلماء.. والناجون منهم ما برحوا يقتفون "الهجرة"، ويستنيرون بـ"النهج"، ويراكمون المصنفات والرسائل، وهم بعد يجتهدون ويتمردون، والشهادة تتراءى لهم عن كثب، مستلهمين ثورة الحسين، ليس في طقوسها المترهلة،

ولكن في بعدها الإنساني، أنموذجاً فريداً في التاريخ.

الشهيد الأول

ويكاد التاريخ العاملي يبدأ مع الشهيد الأول، وما قبله ليست إلا إشارات متقطعة، لا تنتظم في سياق انسيابي، وربما نقرأها أكثر في الوعي التاريخي للأجيال.. وهي حيناً أقرب إلى الاستدلال منها إلى المرويات، ولكننا بالوعي عينه، نستشرف قدم العهد المفعم بذلك التراث، ما يرجح اختلاجه في هذه البقعة منذ العهد الأموي. وقد ألفت السلطة حينذاك، نفي أفواج من المعارضة إلى المشرق الإسلامي، وبعضها إلى غربه ومن ثم إلى جنوبه. ولا يُستبعد أن يكون "الجبل" قد شهد نفياً مماثلاً، حيث تشكلت تلك البؤرة العاملية قيماً بالإسلام، وفكراً بتراث الإمام الصادق، مؤسس "جامعة" أهل البيت، تياراً حوارياً عقلانياً، لاذ به فقهاء كبار من عصره، مخترقاً الحصار السياسي للنظام الذي كانت التصفية أهون السبل لديه. ولم يجد الصادق بداً من استخدام "التقية" التي نهج عليها الأئمة والعلماء من بعده، في مواجهة الطغيان والانحراف. كان ذلك ما خطه السلف، وما درج عليه الفقهاء عبر الأزمنة، في مقارعتهم الظلم، وهم لا يزالون على عهد الصادق وميثاقه، يتوارثون العلم، ويقبضون على الجمر صوناً للعقيدة، وابتغاءً لوجه العدالة، وإمعاناً في ركوب الأخطار، حيث لا تجدي "التقية" عندما تحلك الأيام، وترصدهم "العيون" من كل صوب. بيد أن ذلك لا يتفق والتعميم، لأن ثمة قطيعة ما قبل الشهيد الأول، ربما كانت "التقية" بالمطلق عنوان المرحلة، حيث الأخبار أغامت في ضبابها، فلم يرشح منها ما يبلّ ظمأً.. وهو ما يؤكده العلامة السيد محسن الأمين في قوله: "إن أحوال علماء جبل عامل قبل القرن السادس تكاد تكون مجهولة، فإن الذين ذكرهم صاحب "أمل الآمل" وغيره من علمائه، كلهم بعد القرن السادس". ويمكن الاستدراك، بأن جمهرة العلماء حينذاك لم تأت من فراغ، ولا بد ـ والقول أيضاً للسيد ـ أن يكون منهم في القرن السادس والخامس والرابع وقبله عدد وافر".

ويعقّب على ذلك المؤرخ الشيخ جعفر المهاجر، بأن هذه الفترة "كانت مجهولة تماماً، بحيث تخلو من ذكرهم كتب المراجع والسير، وعلى رأسها أمل الآمل. ولكننا نميل إلى أن القرون السالفة، لم تفتقد حضوراً للعلماء، وإن افتقدت إلى المصادر التي تبددت آثارها في رهج السنين والصعاب.. فهؤلاء المنسيون، من باب الافتراض على الأقل، أسسوا للنهضة الفكرية التي انطلقت بواكيرها مع "الشهيد الأول"، وتبلورت على نطاق واسع في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، متزامنة عبر مراحلها، مع الارتحال إلى المراكز العلمية في العراق وإيران.

وهكذا توالت قوافل الطلاب، تنهل من ينابيع العلم في النجف وقم، المدرستين الشهيرتين، منذ القرن الرابع الهجري، وكلتاهما انبثقت من مدرسة الرأي في الكوفة. وفي المقابل، لم يعدم جبل عامل توافد

علماء من المراكز المشتهرة عليه، فكان التلاقح الذي استولد عدداً من المدارس في رحابه، ما أرسى حالة فريدة في الأطراف البعيدة، مضيفة إلى ذلك خصوصية المكان في تحدياته واصطراعاته مع الطغيان. وما برح العلماء على مداه، ينشرون أرواحهم كالقناديل، مجترحين معادلة السيف والقلم، تلك الراسخة جذوراً حتى اليوم. فلم يعد "الجبل"، من هذا المنظور، امتداداً للمراكز يتزود منها، ويتأثر بها فحسب، بل قدم لها الأساتذة المتفوقين والمبدعين، في مجالات تعدت العلوم الشرعية إلى العلوم العقلية. وليس ادعاء القول إن النهضة العاملية كانت سابقة بمسافة طويلة من الزمن، على تلك التي انطلقت من مصر في مطالع القرن التاسع عشر. ولكن الأخيرة أوتي لها من أسباب الانتشار ما لم يتوفر للنهضة العاملية المحاصرة، والمسكونة بالهواجس الثقيلة.

البيوتات

وما بين الهجرة من "الجبل" وإليه، كان الأخير يترسخ فرادة في محيطه، مضيفاً إلى مخزونه الفقهي، تميزاً في اللغة المتينة والشعر الجزل، من دون أن تكون السياسة في مفهومها الإصلاحي والجهادي في منأى عنه. وفي هذا السياق، ظهرت البيوتات العلمية صروحاً، ظلت أبوابها شارعة على التراث، ومنها على سبيل المثال الأسرة "الأمينية" القادمة من الحلة في العراق. وكان بين رموزها الكبار السيد محسن الأمين، الذي خاض بجرأة معركة صعبة في مواجهة التقليد وتصويب المفاهيم المغلوطة، منطلقاً من خطاب وحدوي جامع، كان له صداه على مساحات واسعة من لبنان إلى الشام، فالعراق وما بعده. ولم يكن هذا العالم التجديدي، إلا من طلابه الشيخ موسى شرارة، المهتدين به والسائرين على نهجه، والمتآزحين معه في التجربة والريادة.

كانت المدرسة إذاً، الرافد الثاني، بعد الهجرة، للنهضة العاملية، وقد توسعت دوائرها، من جزين إلى عيناثا، فالكرك وميس وجباع ومشغرة، من دون الانتهاء بعيتا الجبل وبنت جبيل، وإن بدا منها خارج الجبل، ولكن الشيوخ الأساتذة عامليون، رساليون حيث حطت ركباتهم وانتهى بهم مطاف. و"الجبل" بعد يتسع مداه ولا يضيق، يرهقه الحصار ولا يرغن إلى العزلة. ومن المفارقات أن يحدث ذلك في زمن لا يكاد المنضوون إلى تلك المدارس يجدون قوت يومهم، والصراع السياسي على النفوذ تصيبهم شظاياه، من العهد المملوكي إلى عهد السلطنة العثمانية. ولكن الحياة قضت على أن الجهل وإن ساد طويلاً، فهو مهزوم أمام العلم الذي يقود حركة التاريخ، ولا ينصاع لها.. وحين تأزف اللحظة يتشح المقاومون أكفانهم، وقد فارت نفوسهم كالبراكين.

لم تكن ظاهرة المدارس وسيلة لتلقي العلوم الدينية فحسب، بل هي في صميمها أداة تثقيف لنشر الوعي وإثبات الوجود أمام التحديات التي عاناها لقرون الجبل العاملي. وقد أدت رسالتها في الاتجاهين، مخلفة

من التراث مما لا يزال موضوع دراسة الباحثين، ومنهم من حقق إنجازات جديرة بالتنويه، ولكن يبقى الكثير ما يحتاج إلى كشف النقاب عنه. ومن ذلك، مثالاً، أنماط المنتمين إلى تلك المدارس، وطبيعة تكوينهم الاجتماعي، إلى تشكل نخب أسروية توارثت العلم وبات من سماتها، متسائلين في الوقت عينه عن الانتظام فيها، ومدى تواصلها مع المدارس الكبرى، فضلاً عن إعداد الطلاب المؤهلين لدرجة الاجتهاد، وغير ذلك من فجوات تعكّر السياق التاريخي للمراحل الغابرة؟

والأسئلة غالباً ما تحمل في ثناياها الأجوبة، أو هي الأجدر في مقاربة الحقائق غير القاطعة في كل الأحوال. وبهذا المعنى تصبح الأولى عنصراً أساسياً في أدوات الباحث، حين يغيم المشهد أمامه، ولا تسعفه المعطيات في الولوج إلى التفاصيل. ومرة أخرى نلجأ إلى التساؤل إذا كان ممكناً لفقيه كبير مثل "الحر العاملي"، إنجاز مصنف مثل "أمل الآمل"، من دون أن يستعير بطريقة ما، ملامح الماضي العاملي، مؤسساً ربما لقراءة ريادية توكأ عليها الدارسون لتاريخه؟

من هذا المنظور، يتراءى لنا الشيخ موسى شرارة، علماً من طينة هؤلاء الكبار، ومن قبس نورهم استمد معالم الدور، "فقيهاً، شاعراً، واعظاً، خطيباً فصيحاً، حسن الأخلاق، عالي الهمّة، كثير الحفظ... جامعاً لأنواع الكمالات"، كما وصفه السيد الأمين في "أعيانه". وكان قد بدأ علومه في بنت جبيل، ثم لتسع سنين في النجف متبحراً في الأصول والفقه، مخالطاً المراجع المشتهرين، أمثال السيد محمد سعيد الحبوبي، والشيخ أحمد ابن صاحب "الجواهر"، والسيد مهدي الحكيم (والد المرجع السيد محسن). والسيد حسن الصدر... ولكنه لم يتحمّل حر العراق، فغادره، حيث "صادف ـ والكلام أيضاً للسيد الأمين ـ في جبل عامل، حظاً وافراً، وأقبل الخاصة والعامة عليه إقبالاً تاماً، فنشر.. العلم وأحيا معالم الدين، ورفع أعلام الشرع المبين، وجدّد معاهد الشعر والأدب، وأشاع.. مجالس العزاء لسيد الشهداء، بترتيب المجالس الأسبوعية في بنت جبيل.. وأنشأ مدرسة اجتمع إليها جلّ طلاب العلم الذين كانوا في جبل عامل. وكان يجمعهم كل ليلة جمعة ويسأل كل واحد منهم عن دروسه، ومن لم يحضر يرسل وراءه. وكان يتعاهد أمور الطلبة والمدرّسين، وينحي باللائمة على المقصّر وينوّه بالمجتهد. وكان كلما اجتمع بأحد من أهل السنّة، من حاكم أو عالم، أو غيرهما يكون حديثه في الغالب مقصوراً على التأليف بين الطائفتين. وسعى في بناء المسجد الكبير.. وأدخل تحسيناً كثيراً على طريقة التدريس.. وربما كان أول من أرسى القوانين بعد المعالم في جبل عامل".

السيد محسن

هكذا اختصره السيد الأمين، الذي نشأ وشخصية الشيخ الكبير في وجدانه، تائقاً إلى التلمّذ عليه. فما كاد يجتاز المقدمات في البيت أولاً، حيث حفظ القرآن ودرس النحو برعاية من يسميهم "شيوخ

العشيرة"، وثانياً لأربع سنوات في مدرسة السيد جواد مرتضى (عيتا الجبل)، حتى تحققت آماله بالانتقال إلى بنت جبيل، طالباً في مدرسة الشيخ، وقد ذاعت شهرته حينئذ، واحداً من أبرز العلماء في جبل عامل. كان السيد في السابعة عشرة من عمره، فبهرته شخصية الشيخ الإصلاحي المتنور، كذلك "الأستاذ" اكتشف تفوقاً في تلميذه، ما دفعه إلى رعايته، وانتدابه أحياناً لتلاوة قراءات وطرح تساؤلات على الطلاب، متخذاً دور "المعيد" أو ما يشبه ذلك في التقاليد الجامعية.

ولكن التجربة كانت قصيرة ولم تتعد العام، إذ توفي الشيخ متأثراً بمرض أصابه في العراق (نهاية القرن التاسع عشر)، فعاد السيد منكسراً إلى شقراء، وفي نفسه تضطرب الأفكار على خطى الشيخ الذي ترك فراغاً، أوقعه مرة أخرى في دائرة الضياع. في وقت ما انفك الفقر يرهق العائلة، وهو وحيدها، ما اضطره إلى الانتظار ستة أعوام، مارس خلالها تجارة متواضعة، من دون أن يصرفه العمل عن متابعة تحصيله العلمي، كما أن الترحال إلى النجف كان لا يزال يجيش في نفسه. وفي النهاية لم يعدم وسيلة لتحقيق حلمه الكبير، فمضى متوثب العزيمة، مختصراً المسافات إلى الاجتهاد، حتى إذا حلّ في دمشق، تبلورت شخصيته، ليس فقيهاً مبرزاً فحسب، بل في انكبابه على التصنيف والتأليف.. وفي حله وترحاله، كان ذلك العالم الرسالي، الجريء في قولة الحق، المناضل من أجل تطهر العقيدة من شوائب الأزمنة، الحافظ للتواريخ المهدورة في غياهب النسيان.

وإذا كان السيد قد أمضى سحابة عام، ليس أكثر، في مدرسة الشيخ، إلا أن التجربة القصيرة ماجت في عقله. ولن يكون صعباً اكتناه ذلك في العناوين البارزة لحركته الإصلاحية، وهي منبثقة من فكر "الأستاذ" الذي غرس فيه روح التمرد على الجهل والتخلف.. وعلى غرار سلفه، فهم وظيفة الفقيه، ليس فقط في دائرة الوعظ الديني، بل في المواءمة بينها وبين الدور الاجتماعي والتربوي، فضلاً عن السياسي، بنبرته الأكثر وضوحاً، بما يراعي مستوى التحديات، التي تصدى دونما حرج لها. وكان حينئذ مرجعاً لنخبة المناضلين الوطنيين، خصوصاً في المرحلة الشامية التي واكبها، مرشداً، حتى آخر أيامه. وفي هذا السياق يصفه لطفي الحفار (أحد رؤساء الوزارات الأسبقين) قائلاً: كان لنا نبراساً يضيء في المدلهمات والملمات، وقبساً يشع نوره في مختلف الحادثات.. ولا أنكر أننا كنا نلاقي مثل هذا التأييد من مختلف رجال الدين الآخرين، على اختلاف المذاهب والطوائف الذين يستشعرون بواجباتهم الدينية والدنيوية، غير أن ما كان يتمتع به العلامة السيد محسن من الزعامة والقوة والحب العميق، من جميع من عرفه واجتمع إليه، قوة لنا لمتابعة الجهاد والنضال من دون تردد أو ضعف.

وإذا كانت المقارنة لا تأخذ طريقها إلى الشمول بين الشيخ والسيد، نتيجة للتحولات الصاخبة التي عاصرها الثاني، فإن ثمة اشتباكاً بينهما في الجذور وفي الرؤية الواحدة نحو التغيير، مع الفارق أن الشيخ

كانت العناوين مفعماً بها خطابه الإصلاحي، فيما السيد أخذت به التفاصيل في حراكه السياسي ـ الوطني، والاجتماعي، متصدياً لأمور تندرج خصوصاً في الأخير، حيث "علة العلل" كما عبّر عنها. ويمكن حصرها ـ وفاق ما صرح به وجيه كوثراني ـ في ثلاثة: "الأمية والجهل، الانقسامات والخلافات الحزبية ـ مجالس العزاء وما يمارس فيها من تشويه ومبالغات".. وهي بأجمعها ما تطرق أو ألمح إليها الشيخ الأستاذ، مضيفاً، الدعوة إلى تطوير المناهج في المدارس الدينية، وهو ما تناوله بالنقد أيضاً الطالب الأمين، أثناء التحاقه بالنجف.

بيد أن أهم ما طبع عليه الاثنان، هو عفة النفس والزهد، إلى التواضع في السلوك الإنساني، وعدم الركون إلى الحكام، وإنما كان هؤلاء من يسعى إليهما ويجل مقامهما، على الرغم مما بينهم وبين العلم من جفاء. وفي هذا السبيل، درج الطالب المتفوق، عارضاً عن كل إغواء، ومحبطاً بجسارته المعهودة محاولات الفرنسيين لاحتوائه، وصرفه عن التحريض على مقاومتهم. وقد حدث أن قائداً فرنسياً زاره، فأخذ ينال من الملك فيصل، فرد عليه بعنف، (والكلام هنا مقتبس من رثاء النائب والوزير الراحل علي بزي للسيد الأمين في احتفال تأبينه) قائلاً: "إنك ضيف في منزلي وحرمة الضيافة وحدها تمسكني عن إهانتك. ولكن تأكدوا أن التاريخ لم يسجل أن القوة استطاعت الانتصار على الحق، انتصاراً أبدياً، ولا بد للعرب في سوريا أن ينتصروا في النهاية بحقهم على قوتكم". وحين أسس السيد الأمين المدرسة العلوية في دمشق، والتي سُميت بعد رحيله بالمحسنية تقديراً ووفاء له، كانت في باله، مدرسة الشيخ، حيث تعرف طريقه من هذا المكان، مؤمناً بأن مثل هذه الصروح، ما تحتاج إليه الأجيال، للخروج من نفق الجهل إلى فضاء الحرية، وعقلنة الدين وتهذيب الشعائر المغلوطة.

ويبقى أن الشيخ موسى شرارة، هذا الاسم الكبير الذي رسخ في ذاكرة بنت جبيل، لم تكن الأخيرة إلا من نسغ حبره العابق في أقلام صانعي تاريخها الحديث، علماء وشعراء ومقاومين، ممن صدعوا على منبرها، أو ضوتهم إليها مجالسها. فكانت أولى الثمرات اليانعة للنهضة، الانتفاضة الشهيرة (1936)، تلك المعاصرة للثورة الفلسطينية التي ما برحت في الهواجس قضية مقدسة، كما المقاومة التي ألفتها الحاضرة العاملية، وكانت لها في ميدانها صولات، لتنال عن جدارة شرف أنها عاصمة التحرير.

لم نكن مبالغين في ما سلف، فالأحداث الكبار لا تأتي مصادفة، أو تظهر اعتباطاً، إذ هي تراكم حضاري يجسد "سلم القيم في حياة شعب من الشعوب"، كما يرى المؤرخ الإسباني أميركو كاسترو. والشيخ موسى شرارة، وإن تراكمت أجيال بعده، فلا يزال في أتم حضوره، شخصية نهضوية ساطعة في وعي الحاضرة وجبل عامل، ونمطاً خاصاً في انقلابية جديدة للتاريخ، حيث يتآزر التراث مع التغيير، والعلم والأدب مع القضية، والنهج المقاوم مع الشهادة.